قراءة في ثلاثة كتب

# في مواجهة تُربك نهج تغييبه المتعمد في مدارس أميركية
# صور نصيّة تُعيدُ موضعةَ الفلسطينيّ في سياقه الإنساني

د. فؤاد مغربي

منذ سنوات عدة وابني البالغ من العمر 12 سنة يدرس في مدرسة جيدة ومشوقة في تشاتانوغا بولاية تينيسي. وكطفل فلسطيني عاش ثلاث سنوات في فلسطين شهد خلالها إعادة اجتياح المدن الفلسطينية في الفترة الأخيرة، شاهد بأم عينيه نصيبه من الدبابات وطائرات الهيلوكبتر وأف 16 وهي تقصف بصواريخها المدن الآهلة بالسكان في الضفة الغربية، متسببة بمقتل العديد من المدنيين الأبرياء.

ولدى عودته إلى تينيسي، كان يُطلب منه أحياناً أن يغني أغنيات باللغة العبرية احتفالاً بيوم الغفران، كما أعطيَ دروساً حول الهولوكوست.

وأبلغه أحد المدرسين أن انطباعاته حول الصراع الإسرائيلي- الفلسطيني هي ببساطة من بنات أفكاره. لذلك، لم يكن من المدهش أبداً بالنسبة إليه أن يأتي إلى المنزل ذات يوم وهو يحمل معه رواية لين ريد بانكس (Lynne Reid Banks) **الجسر المكسور** (1996) (*Broken Bridge*)، وهي بمثابة تتمة لكتاب سابق بعنوان **نهر آخر** (1973) (*One More river*) نشرته الكاتبة عن الحياة في أحد الكيبوتسات الإسرائيلية.

وقد أبلغتني معلمة ابني التي تدرس مادة العلوم الاجتماعية، وهي معلمة حسنة النوايا ورائعة، أنها كانت تبحث عن رواية "متوازنة"، لكنها أدركت بأنها كانت تلجُ منطقة مثيرة للجدل. وفي الوقت ذاته، وعلى غرار معظم المدرسين الأمريكيين، تعترف بأنها تفتقد إلى المعرفة التاريخية الضرورية التي تمكنها من الحديث عن سياق الرواية.

ولعل الخلافات بشأن قدرة المناهج المدرسية على تشكيل وعي الطلاب ومواقفهم قد احتدمت لبعض الوقت. ففي مقال سابق، بيَّنت أن تهم التحريض التي تروج لها مجموعات متطرفة مؤيدة لإسرائيل وبعض المؤيدين من الأمريكيين ذوي النفوذ ضد المناهج الفلسطينية، إنما هي في الحقيقة تهم مضللة. وأكدتْ دراسات أخرى ما توصلتُ إليه. وعلى النقيض من ذلك، هناك أبحاث كثيرة يقوم بها معلمون إسرائيليون ترى أن المناهج المدرسية الإسرائيلية تشتمل على قدر كبير من الأفكار النمطية المناهضة للعرب.

هذه التهم والتهم المضادة تركز، على أي حال، على المناهج والكتب المدرسية التي تعتبر جوهر المنهاج المدرسي الرسمي. وما هو أكثر أهمية، وربما أكثر بشاعة، محاولة دس الأفكار والصور السلبية نفسها في ما نطلق عليه "المنهاج الخفي". ويتضمن ذلك أنشطة مدرسية مثل تلك المذكورة أعلاه ومواد إضافية للقراءة مثل **الجسر المكسور**، ناهيك عن التأويلات المختلفة للنصوص المقدمة من جانب معلمين لديهم أجنداتهم الخاصة.

أكتب ذلك في اليوم الذي حضرت فيه أنا وعائلتي حفل الاعتراف بأحد زملاء ابني وصديقه آرون شتاينبيرغ فيما يُسمى (bar mitzuah)،

حيث يتم اعتباره شخصاً بالغاً قادراً على ممارسة طقوسه الروحية والدينية حسب طقوس الديانة اليهودية. وقد تأثرت كثيراً عندما تحدث آرون بشكل فصيح عن الحاجة لسلام إسرائيلي فلسطيني، وأعلن بفخر أنه سوف يمنح نصف الأموال التي سيتلقاها كهدية إلى برنامج "بذور السلام" الذي يجلب الشباب الفلسطينيين والإسرائيليين معاً من أجل تشجيع التعايش.

وبوضوح يبدأ ابني وزملاؤه من الصف السابع بالتفكير في هذه القضايا الشائكة، وبعضهم يفعل ذلك على نحو عاطفي لسبب أو لآخر. والسؤال هو: هل نجعلهم يقرأون كتباً من شأنها تعزيز الأفكار السائدة والأطر الإعلامية البغيضة، أم نحاول أن نبيّن لهم طريقاً آخر. فهناك الكثير جداً من الأفكار النمطية المهينة للإنسان التي يتداولها عامة الناس حول الشرق الأوسط في وسائل الإعلام والثقافة الرائجة. ومهمتنا أن لا نعززها، بل أن نتحداها. ولحسن الحظ، هناك كتب أخرى وطرق أخرى يمكن استخدامها لتشجيع السلام والتعايش.

وبناء على ذلك، قررت أن أقرأ **الجسر المكسور** بعناية وإكتب ردود فعلي الخاصة. وقد استنتجت انه على الرغم من صياغتها المحكمة، فإنها مع ذلك ليست طريقة جيدة لعرض القضايا على الصف السابع. وبينت الأسباب الرئيسية لذلك، ثم شرعت أبحث عن بدائل أفضل. فوجدت كتاباً رائعاً للكاتبة الكندية ديبورا إليس (Deborah Ellis) بعنوان **ثلاث أمنيات: أطفال فلسطينيون وإسرائيليون يتحدثون** (*Three Wishes: Palestinians and Israeli children Speak*)، وكتاباً آخر للكاتبة إليزابيث ليرد (Elizabeth Laird) بعنوان **قطعة صغيرة من الأرض** (*A Little Piece of Ground*)، يؤرخ لحياة مراهق فلسطيني خلال الانتفاضة الفلسطينية الأخيرة والعدوان الإسرائيلي على المدن الفلسطينية.

وما يرد هنا عبارة عن مقالة تستعرض الكتب الثلاثة:
الجسر المكسور تتصل بالأحداث التي أعقبت طعن فتى يهودي في القدس كان قادماً من كندا على يد اثنين من الفلسطينيين. بينما نجت ابنة عمه التي كانت تسير معه بشكل يتعذر تفسيره، فكان عليها أن تكافح بمشاعر مختلطة. وتستثمر الكاتبة الألم لوصف الجدل بين الإسرائيليين حول احتلال المناطق الفلسطينية والمواقف من الفلسطينيين.

وجوهر الكتاب ونقطة بدايته يدوران حول عمل من أعمال العنف المثيرة للصدمة، كان قد اقتُرف ضد فتى يتعاطف معه معظم القراء الغربيين على الفور. وبينما يتم تجسيد الشخصيات الإسرائيلية اليهودية بشكل جيد لدرجة يمكننا أن نتعاطف معها، فإن الشخصيات العربية تبدو غامضة ومختلفة ومهدِّدة.

ويظهر العربي أولاً في **الجسر المكسور** على الصفحة الحادية والعشرين كسائق تكسي: "إذا كان سائقاً عربياً، لا تركب السيارة! لماذا؟ خطر أكثر من الشوك؟ قال الفتى". وبعد ذلك بقليل يظهر العربي كقاتل، حيث تأتي الأخبار عبر الراديو على الصفحة السادسة والعشرين: "طعن طفل في الشارع . . . لقد حدث ذلك في غيلو، بالقرب من هنا. في الشارع وفي وضح النهار هل تستطيع أن تتخيل؟ بعض القتلة العرب القذرين . . . كم كان عمر الطفل؟ شاب مراهق. هذا كل ما قالوه. طفل مراهق هنا بالضبط في مقاطعتنا؟! ليزلي، ما الذي نأتي لأجله، إنهم يقتلون أطفالنا في الشارع!".

هذا الشعور بخطر منتشر يمثله العربي في أعقاب طعن فتى يهودي يحدد أسلوب القصة برمتها. وعلاوة على ذلك، فإن الحدث يحصل في غيلو التي يشار إليها في القصة بـ"منطقتنا"، في إحدى ضواحي القدس. ترى كم عدد معلمي المدارس الأميركيين الذين يعرفون أن غيلو، في الحقيقة، هي مستوطنة يهودية غير قانونية وفقاً للقانون الدولي لأنها أقيمت على أرض فلسطينية مصادرة على مرأى من سكان القرية العربية الذين ما زالوا يحملون صكوك أرضهم المسلوبة.

مصطفى، وهو إحدى الشخصيات الرئيسية في القصة، يحث ابن أخيه على التحول إلى "مقاتل". وأخيراً يقوم كلاهما بتنفيذ عملية يقتل خلالها ابن الأخ، فيصل، فتى يهودياً كان يقوم بزيارة قادماً من كندا. غير أن مصطفى، على أي حال، يستثني بشكل غامض حياة ابنة عم الفتى، وهي فتاة كانت تسير معه. وتضم الشخصيات العربية الأخرى عَلِيّ الذي يحاول أن يحافظ على وظيفته في مطعم يهودي في القدس عن طريق إبلاغ الإسرائيليين عن جيرانه في القرية المجاورة، وعن أخ زوجة مصطفى الذي يتحول إلى عميل ويبلغ عنه في النهاية إلى السلطات.

المؤلفة تطلعنا على التدريب الذي تلقاه مصطفى لكي يصبح إرهابياً: "عندما أرسل مصطفى إلى الخارج بهدف التدرب أعد ليقوم، من بين أشياء أخرى، بنزع رؤوس الدجاجات وهي حية بهدف تخشينه. وفي كل مرة يتخيل بأن الدجاجة كانت يهودياً حقق معه. لكن فيصل لم يكن قوياً وخشناً بما يكفي، كما اعتقد مصطفى" (ص128).

لا نعلم ما إذا كان معظم الإسرائيليين يصدقون بحق هذه الأسطر الوقحة من الدعاية التي تظهر مراراً وتكراراً في وسائل الإعلام الإسرائيلية والأدب الرائج. لكن في النهاية، من المعروف بشكل شائع أن الناس يميلون للاعتقاد بدعايتهم الخاصة.

وفي تحريف غريب للحقائق، تبلغنا المؤلفة على لسان مصطفى بأنه أصلاً من قرية صغيرة في الأردن تقع على الحدود، وبالتالي فإنه ليس مواطناً، بل وافد أو متسلل. ونبلغ أيضاً بأن والده قد أحضره إلى الضفة الغربية بعد حرب حزيران العام 1967 تاركاً أمه وأخواته خلفه للمساعدة في القتال ضد اليهود. ويضفي ذلك مصداقية على خرافة إسرائيلية شائعة يصدقها معظم اليهود تقول إن الفلسطينيين ليسوا حزينين على قدرهم، ويفضلون العيش تحت السيطرة الإسرائيلية لو لم يكن هناك مثيرون للمشكلات يتسللون من الدول العربية المجاورة مصممون على رمي اليهود في البحر!

وعلى النقيض من الشخصيات اليهودية المحبة للهزل والمثقفة والطبيعية في القصة، يظهر العرب غريبين دون تاريخ ووجود طبيعي. والمؤلفة المأخوذة بالطعام العربي كغريبين دون تاريخ ووجود طبيعي مثل معظم الإسرائيليين الذين يحبونه أيضاً، بحيث يقدمونه على أنه خاص بهم (لدينا الآن حمص وفلافل من صنع إسرائيلي، على سبيل المثال)، تشعر مع ذلك بأنها مجبرة على نقد انهماك العرب في تحضيره بإفراط، ناهيك

عن وصف القلق الذي يستبد بفيصل قبل أن يقترف عمله العنيف. وبالتالي، ليس ثمة شيء في أي شخصية عربية يجعل المرء يتعاطف معها بأي شكل من الأشكال. فهذه الشخصيات تبقى قاتمة ومبهمة وتترصد دائماً في الأزقة وتنتظر الفرصة الملائمة للانقضاض على بعض اليهود. إن المؤلفة تحاول أن تظهر متوازنة في روايتها. لكن هذا التوازن غريب جداً لأنه ليس توازناً بين الروايتين الإسرائيلية والفلسطينية. فهناك القليل عن الرواية الفلسطينية، بحيث تُعرض لنا أخبار متناثرة هنا وهناك عن مدى سوء الاحتلال. ونبلغ بأن المستوطنين اليهود المتدينين المتطرفين يقومون بترهيب القرويين العرب (وتفشل في الإشارة إلى أنهم يفعلون ذلك غالباً على مرأى من الجيش الإسرائيلي). وتقدم إشارة عابرة عن تسوية 300 قرية فلسطينية مع الأرض، واقتلاعها من جذورها على يد الإسرائيليين العام 1948 لضمان أن اللاجئين العرب لن يكونوا قادرين على العودة. وسوف يعرف القارئ بناء على ذلك القليل عن الفلسطينيين: من هم؟ ولماذا يتصرفون أحياناً هكذا؟

وما يظهر على أنه "توازن" في الكتاب يبرز لأن المؤلفة تلتقط جيداً الجدل داخل إسرائيل نفسها بين أولئك الذين يعاملون العرب الفلسطينيين بازدراء عنصري وأولئك الذين يرون أن الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية والمعاملة القاسية للفلسطينيين من جانب المحتلين الإسرائيليين ربما يفسران أعمال العنف الفلسطينية ضد اليهود.

إن ظهور التوازن على وجه التحديد هو الذي يجعل القراء الأمريكيين غير المطلعين يعتقدون أن هذا كتاب يحاول تشجيع السلام. وهذا له مفعول بشكل رئيسي؛ لأن معظم القراء الأمريكيين يفتقدون إلى المعرفة التاريخية الضرورية التي من شأنها أن توفر السياق اللازم للقصص. وهنا تكمن المشكلة الرئيسية باختيار هذا الكتاب كمقدمة لهذا الصراع. فبدون بعض المعرفة بسياق التاريخ والفروق الدقيقة للمكان، من شأنه أن يضيف ببساطة إهانة للحيف القائم ويعزز الأنماط القائمة سلفاً التي تحط من قدر الناس، وفي نهاية المطاف، يشجع وسائل الإعلام، ويعزز صورة العربي على أنه "إرهابي" في عقول الأطفال الأميركيين.

وفي الجوهر، يؤطر الكتاب هذه القضايا فحسب –في هذه الحالة العنف الفلسطيني ضد اليهود– بحيث يكون العرب هم المجرمون، واليهود هم الضحايا. فهو إذن لا يقدم شيئاً عن مضمون الرواية الفلسطينية وتعقيداتها. وبعد قراءة الكتاب، يدرك المرء لماذا ينخرط الإسرائيليون في أعمال عنف ضد العرب، وربما يتعاطف معهم، لكن المرء لا يفهم الظروف التي تقود الفلسطينيين للانخراط في العنف. والأكثر أهمية أن الإنسان لا يرى أي بصيص أمل بانتهاء دائرة العنف هذه، كما لو أنها نوع من النزاع الممعن في القدم.

القصة أصلاً هي عرض تاريخي لجدل افتراضي. ولأن اليهود الإسرائيليين يقدمون كبشر، فإن الجدل يجري بشكل أساسي فيما بينهم. ومن حيث المبدأ لا بأس في ذلك، لكن هذا الفعل نوع زائف من الجدل.

وما لا تقوله الكاتبة لنا أن أولئك الذين يزدرون العرب بشكل عنصري يمثلون في الحقيقة الأغلبية بين اليهود الإسرائيليين، كما تؤكد ذلك بين الحين والآخر استطلاعات الرأي الإسرائيلية. وعلى النقيض من ذلك، فإن أولئك الذين يدعون إلى تبني موقف إنساني للتعامل مع العرب الفلسطينيين هم في الواقع أقلية صغيرة جداً، صوتها مهمش في المجتمع الإسرائيلي.

في النهاية، فإن الانطباع القائل إن هناك جدلاً أخلاقياً قوياً وصحياً في إسرائيل هو ببساطة لا يعدو عن كونه خداعاً أو مجرد نموذج لتفكير مرغوب بين كتاب ومفكرين من ذوي المقاصد الحسنة، من شأنه أن يقدم إسرائيل كمجتمع طبيعي متمدن وديمقراطي، حيث يقال إن مثل هذا الجدل يجري فيه.

تبدأ ديبورا إليس كتابها المتوازن بشكل واع ودقيق بالتعبير عن قلق حقيقي إزاء المدنيين، وبخاصة الأطفال الذين يَعلقون في أوضاع الحرب. وتؤكد على ما هو موثق بالتفصيل من جانب اليونيسيف وآخرين، وتحديداً أن 15% من جميع ضحايا الحرب العالمية الأولى كانوا من المدنيين. وفي الحرب العالمية الثانية كانوا يشكلون 50%. أما في العام 2004 فقد كان 90% من ضحايا الحروب مدنيين". وتشعر إليس بالقلق بسبب ضحايا النزاع الإسرائيلي – الفلسطيني. وتشير إلى أنه "بين 29 أيلول 2000، عندما اندلعت الانتفاضة الفلسطينية الثانية ضد الاحتلال الإسرائيلي و7 آذار 2003 قتل 399، 3 شخصاً. ومن بين هؤلاء 429 طفلاً تحت سن الثامنة عشرة". وتسرد أسماءهم بعد ذلك.

وتوفر إليس إطاراً وسياقاً يمكّنان القارئ من فهم المقابلات مع الأطفال. وتوضح باختصار تاريخ النزاع، وتعرض لأوجه الخلاف كما يراها الإسرائيليون والفلسطينيون. وعليه، فان كلتا الروايتين موجودتان. وسوف يفهم القارئ أيضاً ما المقصود بمستوطنة يهودية، وكيف تخصص بعض الطرق لليهود فقط، وكيف تتم السيطرة على الفلسطينيين عن طريق نظام المتاريس وحواجز التفتيش.

ويستمع المرء إلى أصوات الأطفال الفلسطينيين والإسرائيليين، ويستطيع بالتالي أن يدخل عالماً محاطاً بالخوف والقلق واليأس أحياناً. ومع ذلك يمكن رؤية بصيص أمل واحتمالات بحياة أفضل.

وما نتعلمه بقراءة هذه الأصوات يشكل صدمة في بعض الأوقات، إلى درجة تجعلني أعتقد أن كل سياسي عربي وإسرائيلي يجب أن يُطلب منه قراءة الكتاب ليعرف أخيراً نوع العالم الذي يخلقونه لأطفاله. نحن نتعلم على سبيل المثال أنه ليس هناك احتكاك على الإطلاق بين الأطفال الفلسطينيين والإسرائيليين. يقول أحد الفتيان الإسرائيليين (15 سنة)، وهو مهاجر حديث من روسيا: "أعرف قليلاً جداً عن الفلسطينيين مما تنقله الأخبار. ويبدو أنهم يكرهوننا، لكنني لا أعرف لماذا. لم ألتق بأي واحد حتى الآن، ومن المستحيل لنا أن نلتقي. فنحن منفصلون" (ص23).

ويقول فتى فلسطيني (11 سنة): "لا أعرف أي أطفال إسرائيليين. ولا أريد أن أعرف أياً منهم. إنهم يكرهونني وأنا أكرههم" (ص 50).

ويقول ميراف، وهو فتى إسرائيلي (13 سنة) يعيش في مستوطنة (أي في مكان أقيم خصيصاً لليهود فقط على أرض عربية مصادرة في قلب الضفة الغربية: "لا أعرف أي أطفال فلسطينيين، فجميعهم خارج

مستوطنتي، لا أعرف أياً منهم، وليس لدي سبب لألتقي بهم. هم خطرون وسوف يطلقون النار علي إذا ما أتيحت لهم الفرصة، والجيش الإسرائيلي يبقيهم بعيداً عنا" (ص 67-68).

ولعل الإسرائيليين الوحيدين الذين يرونهم الأطفال الفلسطينيون هم الجنود. وهنا يتحدث أحد الأطفال الفلسطينيين (12 سنة) فيقول: "هناك الكثير من الجنود حيث أعيش. فهم يراقبوننا طوال الوقت. ولا نستطيع أن نفعل أي شيء دون أن نكون مراقبين من جانبهم. هم يحملون البنادق ويتسببون بالكوابيس لي. نرغب في أن يغادرونا، لكنهم لا يأبهون بما نريد" (ص25).

ومن المهم الإشارة إلى أن الأطفال الإسرائيليين اجتماعيون جداً: جميعهم تقريباً يذكرون رحلات المدرسة الميدانية إلى ياد فاشيم، والأنشطة الاستكشافية التي يقومون بها، ويذكر أحد الأطفال زيارة له إلى بولندا "لرؤية ما حصل لليهود خلال الحرب" (ص 29). ومن المثير أيضاً رؤية حجم الموضوعات الدعائية والصور لمناهضة العرب التي تصل الأطفال. وهذا مثال من شاب يبلغ الثامنة عشرة في مستوطنة يهودية شمال القدس، حيث يقول: "نحن الإسرائيليين كنا ولا نزال نحاول، لكن كم يمكننا أن نعطي؟ ومع ذلك فهذه أرضنا. أتمنى أن يأتي جميع اليهود في العالم إلى إسرائيل وأن يغادر جميع الفلسطينيين ويذهبون للعيش في إحدى الدول العربية" (ص76).

وعلى النقيض من ذلك، لا يبدو أن الأطفال الفلسطينيين يخضعون لمثل هذه العملية المكثفة للتكيف الاجتماعي. ويبدو أنهم يتأثرون أكثر بنصوص الحياة اليومية وما يرونه حولهم يومياً. وهنا فتى يبلغ الثامنة عشرة من عمره ويعيش في مخيم للاجئين قرب رام الله، حيث يقول: "الكثير من الناس يموتون في هذا المخيم. الإسرائيليون يطلقون الصواريخ علينا. وقبل وقت ليس بطويل، أصاب صاروخ سيارة وقتل امرأة وأطفالها الثلاثة. امرأتان أخريان قتلتا جراء لغم أرضي. الكثير من الناس يموتون هنا" (ص79).

ومما يسجل لها، أن ديبورا إليس تشير إلى أن العديد من الأطفال الفلسطينيين عانوا مما نسميه حالات الإجهاد الملازمة بعد الصدمة، وهي ظاهرة منتشرة بكثرة، ولم تحظَ إلا باهتمام ضئيل. فأولئك الذين يعيشون في مخيمات للاجئين هم الذين عانوا أكثر شيء، لأن الجيش الإسرائيلي يركز عليهم معظم هجماته. وتتضمن الأعراض كسلا وانعدام القدرة على التركيز والتبول في الفراش والسلوك العدائي والأرق والكوابيس.

أما الأطفال الإسرائيليون الذين احتكوا مع الأطفال الفلسطينيين فيميلون إلى رؤية الأشياء بشكل مختلف إلى حد ما. وهنا فتى يبلغ من العمر الخامسة عشرة ويعيش في القدس حيث يقول: "اعتدت على أن أشارك في درس الفنون مع أطفال فلسطينيين. كنت أبلغ الحادية عشرة من العمر. ولم يكن ذلك مسألة مهمة. فقد كانوا هم مجرد أطفال يقومون بعمل فني مثلي تماماً. لم نتقاتل لأنهم كانوا فلسطينيين وأنا إسرائيلي. كنا مجرد أطفال نتعلم الفن" (ص96). ويشير هذا الفتى بقوله: "لا أعتقد أن بمقدورنا الخروج من هذا الوضع ما لم تمنح الفلسطينيين دولتهم الخاصة. إنها الطريقة الوحيدة لصنع السلام. فكل شخص عليه أن يتنازل عن القليل مما يريد للحصول على بعض الشيء. نحن كلينا هنا، ولا أحد منا سيرحل بعيداً" (ص98).

إن بعض ملاحظاتهم مؤثرة بالفعل. فالكل تقريباً يتمنى نهاية الاقتتال. وتقول فتاة فلسطينية تبلغ الرابعة عشرة من العمر: "أتمنى أن ينتهي الاقتتال بحيث نستطيع أن نصنع الموسيقى ونفرح ولا يكره بعضنا بعضاً. وربما استطعنا أن نصنع الموسيقى مع الإسرائيليين ذات يوم" (ص62).

وتقول إسرائيلية تبلغ السادسة عشرة من عمرها: "لدي أمنية واحدة: أريد أن تنتهي الحرب لكي أستطيع العيش في إسرائيل، وأعمل على تربية أطفالي هنا" (ص33).

ويعالج كتاب إليزابيث ليرد **قطعة صغيرة من الأرض** الذي كتب بمساعدة الكاتبة الفلسطينية سونيا نمر قضايا مألوفة لي، حيث عشتُ في رام الله خلال الفترة (2000-2003)، وهي الفترة التي تعرض فيها الكاتبة للأحداث.

نشر الكتاب العام 2003 من جانب ماكميلان (Macmilland Children's Books) في إنجلترا وأعيدت طباعته العام 2006 من جانب (Haymarket Books) في الولايات المتحدة. وللحظة يمكن أن لا يشتري المرء هذا الكتاب من خلال (Amazon.com USA) بسبب حملة بغيضة أطلقتها مجموعات مؤيدة لإسرائيل.

ولاحظت، على أي حال، انه بالإمكان الآن شراء نسخة من خلال الموقع المذكور. وفي الآونة الأخيرة، تم اختيار الكتاب ضمن قائمة مجلس الولايات المتحدة لكتب الأطفال -مجلس كتاب الأطفال، واعتبر من بين الكتب الدولية البارزة للعام 2007، وهذا شرف تستحقه الكاتبة، وكذلك دار النشر.

يروي الكتاب قصة عائلة عابودي التي تعيش في رام الله وابنها كريم (12 سنة) واثنين من أصدقائه: أحدهما ويدعى هوبر (Hopper) من مخيم بالقرب من رام الله، والآخر ويدعى جودة من عائلة غنية نسبياً. ويكثر كريم من أحلام اليقظة، بحيث يصبح نجماً في كرة القدم، لكنه مضطر للكفاح ضد أوامر حظر التجول التي تفرضها إسرائيل والحواجز التي تحد من حرية حركته. وهو يبدو كمراهق في كتاب ديبورا إليس فيتحدث عن الجنود الإسرائيليين المثيرين للخوف، الذين تعتبر أحكامهم طفلاً بعمر 12 سنة يرشقهم بالحجارة هدفاً مشروعاً للقتل. وقد لقي والده الإذلال أمامه من جانب الجنود الإسرائيليين على أحد الحواجز الإسرائيلية، بينما كان أفراد العائلة مسافرين بالسيارة لقضاء يومين في مسقط رأسهم بقرية قرب رام الله. وتلقى العائلة والأقارب الظلم والتهديد من جانب المستوطنين اليهود القريبين منهم، الذين يعيشون على أرض عربية مصادرة عندما يحاولون قطف زيتونهم كما فعل أسلافهم لأجيال عدة. فبالنسبة إلى هؤلاء المستوطنين اليهود الذين يعود أصلهم إلى الولايات المتحدة تعتبر الأرض ملكاً للشعب اليهودي، وأن الفلسطينيين الذين يقال إنهم يخربونها يجب أن يرحلوا عنها.

قرر كريم وصديقه هوبر استصلاح أرض ممهدة وتحويلها إلى ملعب لكرة القدم. كما أقام فيها حجرة سرية كمخبأ لهما بعد المدرسة. هذا الجهد

لاستصلاح قطعة صغيرة من الأرض وضعهما في النهاية في مواجهة مع دبابات إسرائيلية وجهاً لوجه في مغامرة مميتة تنقل القارئ مباشرة إلى قلب المواجهة الإسرائيلية–الفلسطينية. فقد أصيب كريم بطلق ناري في الساق وهو يهرب من الجنود الإسرائيليين، لكنه نجا من الموت. وفي ختام القصة، تقول المؤلفة: "سوف يعود قريباً عندما تتحسن ساقه، وسوف يبدأ من جديد هو وهوبر، وسوف يجلبان معهما الفتيان الآخرين ويجعلون المكان خاصاً بهم مرة أخرى، ويلعبون كرة القدم ويلعبون . . ويلعبون" (ص216).

تلتقط إليزابيث ليرد التفاصيل الدقيقة للمكان بشكل جيد، بحيث يكاد المرء ينسى أن المؤلفة أجنبية بالفعل تكتب قصة فلسطينية. ويكشف التفاعل داخل عائلة عابودي عن مجتمع تلعب فيه العائلة دوراً أساسياً في حياة الناس، حيث تقدم دعماً غير مشروط لجميع أفراد العائلة. وربما يكون هذا أحد المصادر الرئيسية للقوة التي أتاحت المجال للمجتمع الفلسطيني لمقاومة الهجمات الإسرائيلية القاسية.

يجلس حسان عابودي، الأب الذي عانى الذل على أيدي الجنود، وهو صامت لدى تناول العائلة وجبة الطعام ثم يقول: "الجلد يتطلب شجاعة ولياقة فيما بيننا. وهذا ما يجعلنا أقوياء. وعندما يسرقون منا ويحاولون إذلالنا، فإن الخزي الحقيقي يقع عليهم" (ص65).

ويلتقط الكتاب آثار العدوان الإسرائيلي على المدارس والتعليم. فثمة مدارس عديدة خرب الجنود الإسرائيليون ممتلكاتها، وتم تفتيش وزارة التربية والتعليم العالي، وتحطيم أجهزة الكمبيوتر فيها، ما أدى إلى خسارة كبيرة في الملفات ونظم المعلومات. وفي القصة، لا يستطيع الأطفال التركيز لأنهم "منفعلون ومرهقون"، حيث يستمعون إلى انفجار كبير خارج مدرستهم، ويلجأ المعلم اليائس إلى العقاب الجسدي للسيطرة عليهم.

كما تلتقط ليرد بشكل جيد مشاعر القلق والفقدان عندما يبلغ جودة، وهو أفضل أصدقاء كريم، صديقه بأنه ووالديه قد قرروا الرحيل عن البلاد. ففي تلك السنوات قررت مئات العائلات ذات الدخل المتوسط والمهنيين الرحيل بسبب مخاوفهم على أمن أطفالهم ومستقبلهم.

ولعل المجتمع المتماسك جداً قد تمزق إرباً كما حصل في السابق في شهر حزيران من العام 1967، وفي شهري نيسان وأيار من العام 1948.

إن كتاب **قطعة صغيرة من الأرض** يمثل استعارة بالنسبة للفلسطينيين الذين يطلبون من العالم ببساطة الاعتراف بحقهم بمكان صغير، يستطيعون أن يعيشوا فيه بحرية، ويتنفسوا بعض الهواء النقي. إنه كذلك قصة تتضمن مدى تحمّلهم ورفضهم الإذعان إلى قوة متفوقة جشعة.

وتهدي دار النشر(Haymarket Books) الكتاب لذكرى راشيل كوري نشيطة السلام الأمريكية الشابة التي سحقتها بلدوزر إسرائيلية حتى الموت. وتقدم لين ريد بانكس وصفاً مختصراً للكتاب وتقول: "هذه القصة حول كيفية الشعور تحت قدم المحتل، وكيف يؤثر ذلك بالحياة اليومية، أمر شاذ وغريب. وقد اعتنينا بهذا الفتى وعائلته، نعم بدافع النفور من مضطهديهم، وأقول إنني كشخص عاش في إسرائيل لسنوات وكتبتُ قصة الإرهاب في تلك المنطقة للأطفال من الجانب الإسرائيلي، أعرف أنه كتاب جيد، ويحتاج إلى أن يقرأه الآخرون مثلي".

هؤلاء المؤلفون الشجعان لكتب الأطفال مضطرون للتعامل مع القضايا الشائكة المحيطة بالنزاع الإسرائيلي– الفلسطيني. ومع أن بعض هذه الكتب أثارت غيظاً يقترب من الهستيريا من جانب المجموعات المتصلبة المؤيدة لإسرائيل، فإنه من المثير حقاً الإشارة إلى أن مئات آلاف النسخ من هذه الكتب المتنوعة بيعت ولا تزال تباع في مختلف أنحاء العالم، بل وفاز عدد من مؤلفي هذه الكتب ببعض الجوائز الأدبية المهمة.

هذا يعني أن السيطرة التقليدية التي امتلكتها المجموعات المؤيدة لإسرائيل، وبالغت على الدوام –من وجهة نظري– بجعل دور نشر معروفة تمتنع عن المغامرة بدخول هذه المنطقة، هذه السيطرة بدأت أخيراً بالتقهقر.

لدينا الآن عدد من الكتب المكتوبة جيداً، التي تقدم صوراً نصية عن حياة الأطفال في أوقات النزاع. والأكثر أهمية لدينا الآن لأول مرة صور وصفية عن أطفال فلسطينيين كأناس عاديين أقحموا في الصراع اليومي حفاظاً على وجودهم، أطفال مفعمين بالآمال والمخاوف ومشاعر الحب والكره تماماً كبقية أطفال العالم. وهذا ملاحظ تماماً لأن الفلسطيني كإنسان لا يزال "غير موجود"، وهويته لا تزال تحتجب تحت شعارات عديدة– هو إرهابي، أو مهووس متدين، كاره اليهود، معتدل أو متطرف. والضحايا الفلسطينيون هم في العادة مجرد أرقام، بينما الضحايا الإسرائيليون بشر لهم قصة حياة، حيث نبلّغ بأعمارهم، وما هي آمالهم ... وهكذا.

ومن المهم القول إننا للمرة الأولى نستطيع رؤية أطفال فلسطينيين كبشر عاديين، فالمسار السياسي المعمم على النزاع الإسرائيلي – الفلسطيني غالباً ما يحجب الصوت المأساوي الذي يضفيه النزاع على المدنيين الأبرياء. هذه الكتب تسلط الضوء على هذا البعد الإنساني وهي تفعل ذلك بشكل جيد، وتكشف لنا التكلفة الباهظة والمأساوية بشكل مذهل لهذا النزاع المستمر، والحاجة الملحة لحله.

**د. فؤاد مغربي – مركز القطان**
**قسم العلوم السياسية/ جامعة تينيسي، تشاتانوغا**

## المراجع


- لين ريد بانكس (1994). **الجسر المكسور**، نيويورك – أمريكيا: منشورات آفون
- ديبورا إليس (2004). **ثلاث أمنيات: أطفال فلسطينيون وإسرائيليون يتحدثون**، تورونتو: منشورات غراوند.
- إليزابيث ليرد (2006). **قطعة صغيرة من الأرض**، أميركا: منشورات هيماركت بوكس، ط 2.